سلسلة مقالات اونبا سابريس

البطريرك اونطاكي

(١٦)

الصُّعُود

مليكة حبيب يوسف

يوسف حبيب

مقال القديس انبا ساويرس

البطريرك الانطاكى

(١٦)

من

الصعود

مترجم عن الفرنسية من الكتاب الأول من الجزء الثانى

من مجموعة

Patrologia Orientales, R. Graffin — F. Nau

Les Homélies Cathedrales de Sévère d'Antioche.

Homélie LXXI

Publiée par Maurice Brière

PARIS

ثمن
٢٥

بسم الآب والابن والروح القدس الاله واحد آمين

حضرة صاحب الغبطة ابينا الطوباوى المكرم

الانبا كيرلس السادس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

بسم الآب والابن والروح القدس اله واحد آمين

اشتهر القديس ساويرس بمقالاته اللاهوتية وترى فيها الكثير من المعانى الدقيقة والافكار العميقة يبرزها بعبارة بانتقاء ما يناسبها من الالفاظ. وهذه المقتطفات من المقال الحادى والسبعون من مقالات الاب القديس ساويرس البطريرك الانطاكى عن صعود الرب مخلصنا يسوع المسيح المترجم من الكتاب الأول من الجزء الثانى عشر من مجموعة

Patrologia Orientales, R. Graffiin — F. Nav
Tome XII, Fasc. 1, Homelie LXXI
Les Homélies Cathedrales de Sévère d'Antioche

ترجمه إلى السريانيه الاسقف يعقوب الرهاوى فى القرن

السادس ثم ترجمه الى اللغة الفرنسية ونشره موريس بريير Maurice Brière وترجمناه إلى العربية وفى الترجمة توخينا التدقيق لنعطى النصوص الصورة الاصلية التى قصد اليها القديس وراعينا ان نلبس المعانى الالفاظ الانسب والعبارات الأدق. وفى بعض الافكار اللاهوتية التى برع فيها المؤلف وابدع حتى بلغ ذروة الاعجاز ذكرنا فى الهامش النص الفرنسى والحقيقة ان جميع لغات العالم غير قادرة على نقل صورة بعض الافكار اللاهوتية الى الناس إلا بمقدار. وقد اضطررنا فى القليل من الحالات إلى بعض التصرف بما تقتضيه الترجمه وخواص كل لغة مع عدم الأخلال بالأصول.

ولالهنا المجد والعظمة الى أبد الدهور آمين.

مليكة حبيب يوسف يوسف حبيب

١٩٧٠

قال القديس ساويرس :

انى احتفل بتقاليد الرسل القديسين التى سلمها لنا اعمدة(١) هذه الكنيسة كميراث ابدى ، بعد ان تسلموها كل واحد بدوره على نحو ما يتسلم الابن من ابيه ، فنمت على أيديهم وكانت معرفة السر تزدهر فى القلوب .

وقال داود : « عابرين فى وادى البكاء يصيرونه ينبوعاً . أيضاً ببركات يغطون مورة . يذهبون من قوة إلى قوة . يرون قدام الله فى صهيون » (مز ٨٤ : ٦-٧) .

ومن هذه التقاليد يدوى صوت الكنيسة عالياً اليوم ، معلناً بذلك انه لأجلنا نحن ، صعد المسيح إلى السموات .

حقاً كما تعمد المسيح لأجلنا ، كان يطهر المياه ويقدسها ، ولم تكن ليتطهر بها ، وأنى يكون ذلك لمن

---

١) رعاة Pasteurs .

هو نور النور ، الذى لا يعرف خطيئة ، انه لأجلنا صلب ، كما هو مكتوب ، انه ارتفع إلى الكمال بالآلام ، « مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به وإذ كمل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص ابدى » (عب ٥ : ٨-٩) .

ان ذلك الذى هو بطبيعته كامل فى كل شىء يجعلنا نحن المحتاجين نكمل به بخلاص كامل وشفاء كامل ؛ كان فى الجسد يصارع الموت ويكسر شوكته وهو هو الذى يملأ السماء والأرض ، الاشياء المرئية وغير المرئية . صعد جسدياً فوق كل السموات ، فحملنا معه نحن الذين كنا مطرودين من السماء ، أو بالحرى كنا غير مستحقين ان نطأ الأرض .

وكما اننا حينما نبشر بفضل القيامة نبين ان بها قمنا من سقطة الخطية القديمة ، هكذا فى اليوم الأربعين من قيامة مخلصنا من بين الأموات إذ صعد على عرش ملكه الموضوع

فوق السماء نعلم اننا اصبحنا سماويين . ذلك الذى هو « فوق كل رئاسة وسلطان وقوة » (اف ١ : ٢١) باكورة جنسنا . « ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين » (١ كو ١٥ : ٢٠) .

فبالفعل اتخذ كلمة الله نسل ابراهيم ، لأنه حقاً ليس يمسك الملائكة بل يمسك نسل ابراهيم ، (عب ٢ : ١٦) ، حينما كان من المرأة ، ونحت الناموس . « ولكن لما جاء ملء الزمان ارسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس » (غل ٤ : ٤) . حينما اشترك مثلنا فى الدم والجسد اللذين لهما نفس عاقبة ، « فاذ قد تشارك الاولاد فى اللحم والدم اشترك هو ايضاً كذلك فيهما لكى يبيد بالموت ذاك الذى له سلطان الموت اى ابليس » (عب ٢ : ١٤) ، حينما شابهنا فى كل شىء ، نحن اخوته ، ما خلا الخطية . « من ثم كان ينبغى ان يشبه إخوته فى كل شىء لكى يكون رحيماً ورئيس كهنة اميناً فى ما لله حتى يكفر خطايا الشعب » (عب ٢ : ١٧) .

فلا تتعجب إذا كان عمانوئيل ، باكورة جنسنا ، قد صعد إلى هذا الارتفاع ؛ فانه فى الواقع « لم يضمر اختطافاً ان يكون مساوياً لله » ؛ بمعنى انه لم يكن كجبار اقتحم الملكوت ، ولم يمكن اختطف العرش بغير حق ، حينما قدر وحكم بأنه مساوٍ لله (١) ، مع انه كان فى شكل الله ، وفى جوهر (٢)

---

(١) جاء فى النص الفرنسى ما يلى :

"Lorsqu'il s'est lui-même estimé et jugé l'égal de Dieu."

(٢) وقد ورد فى النص الفرنسى فى البترولوجيا الكلمات الاربع التالية متفرقة فى اجزاء مختلفة وهى :

١ — Nature

٢ — Personne

٣ — Hypostase ou substance

٤ — Essence

فكلمة Essence فى النص عاليه ، ومعناها ما يتكون منه طبيعة الشىء ، ادق معنى لها فى علم اللاهوت ما نعبر عنه بالجوهر .

الله ، أخلى ذاته واتخذ شكل العبد ، وبدون تغيير تأنس حقاً ، وليس ظاهرياً ، وكان يحيا فى شبه الناس ، ومن الخارج ظهر كانسان . « الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة ان يكون معادلا لله لكنه اخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس » (فى ٢ : ٧ - ٨) . لم يحتقر أو يرفض رتبة العبد فى شىء . بل حينما اخذ على عاتقه مرة واحدة ان يكون انساناً حقيقياً عاش كانسان مع الناس ، مظهراً الشبه معنا فى كل شىء ما عدا الخطية وحدها .

لم يظهر رجلا غريباً فهو يملك كامل سمو الطبيعة . كان يعمل التدبير الالهى بحكمة وبنعمة نحونا ، فكان وهو الكامل يرى وهو يتنمو مع السن فى الحكمة والنعمة » . واما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » (لو ٢ : ٥٢) .

جاع ، عطش ، وتحمل تعب الطريق ، وكان يخضع ذاته بارادته للآلام الأخرى ، اعنى الآلام البعيدة عن الخطية .

ان خطيئة آدم كانت العصيان وتعدى الوصية . بينما كان المسيح ، آدم الثانى ، يبذل نفسه فداء فيمحو الخطية . ان الوصية التى اخذها من الآب هى خلاصنا . فبتنفيذه هذه الوصية واطاعته للآب ، كان يقدم لنا مثال الحياة الافضل ، يشفى العصيان بالطاعة والعصيان مصدر الشرور ، منه خرج تيار الخطية الجارف فدخل الموت الى جنس البشر كله وتملك فيه . وأصبح ضرورياً ان يقدم المسيح الطاعة بدلا منا ، فيذهب حتى إلى الموت الذى كان آدم يستحقه بعصيانه ، وبهذا غرس نعمة الخلود بقيامته . وهذا ما كان يقصده بولس الرسول : « واذ وجد فى الهيئة كانسان وضع نفسه واطاع حتى الموت موت الصليب . لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم . لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الارض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان ان يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب . » (فى ٢ : ٨-١١)

يا لعمق حكمة الله وعلمه !! يا لغنى التدبير الالهى !!

كيف ان ما يليق بالله المتعالى العظيم نجده فى الاشياء المتفقة مع التدبير الالهى . لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم » (ف ٢ : ٩).

اطاع حتى الموت ، وتحمل مـــوت الصليب . صلب وتألم حسب الجسد ، « الذى اذ كان فى صورة الله . . . . اخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه النـــاس » (ف ٢ : ٦ - ٧) بتأنســـه .

معنى عبارة « اخذ شكل العبد » انه حسب معنا نحن الذين نخضع لحاجة الجسد ، وقد بذل ذاته فداء عنا لخلاص البشر .

لذلك مكتوب أيضاً ان الله اعطاه اسماً فوق كل اسم ، لانه من نفس الجوهر كالآب(١) وهو سيد الكون ، اعطاه لأجلنا نحن الذين تعود علينا هذه العطية ، ولنا ايضاً جعل نفسه باكورة .

---

(١) النص الفرنسى : "en tant qu'il est de la même essence que le Père et qu'il est le maitre de l'univers.

ولو لم يكن هو نفســـه بالجوهر انسان واله ، بل كانت له طبيعتان ، كما يزعم النسطوريون الجهلاء ، لما كان ممكناً ان يعطى الاسم « الذى هو فوق كل اسم » .

وفى الواقع يستطيع الله ان يفعل كل ما يريد . لكنه لا يريد سوى ما هو جدير ، وما كان جديراً باسمه شىء غير منظم . لان الذى ابدع الترتيب فيما هو موجود ، لا يمكن ان يريد شيئاً غير مرتب . لانه كما انه قدير ، أو قل القدرة ذاتها ، فهو أيضاً الترتيب ذاته والانتظام .

وتوجد حالات يصنع فيها الله معجزات مختلفة تفوق الطبيعة ، لكنها مع ذلك لا تكون ضد كلماته . فكيف اذن من يقول : « من مشرق الشمس إلى مغربها اسم الرب مسبح » (مز ١١٣ : ٣) ، ويقول أيضاً على لسان نبى آخر : « انا الرب هذا اسمى ومجدى لا اعطيه لآخر » (١ ش ٤٢ : ٨) ، كيف يعطى اسماً فوق كل اسم لغير الله الكلمة ؟

ان بولس الرسول يقول عنه : « رفع في المجد » (١تي٣:١٦) ويقول أيضاً : « الذي نزل هو الذي صعد أيضا فوق جميع السموات لكي يملأ الكل » (اف ٤ : ١٠).

فمن يتجاسر بعد سماع هذه الكلمات ان يقسم الرب الاله الوحيد يسوع المسيح ؟ إذا كان الذي نزل هو أيضا ذاته الذي صعد فوق كل السموات حتى الشرف الرفيع اللائق بالله ، فكيف يؤمنون أنه اثنان وليس واحداً ؟

لهذا السبب إذا كان يقول هو نفسه إلى نيقوديموس في الاناجيل : « وليس احد صعد الى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي هو في السماء » . (يو ٣ : ١٣) . فان ذلك الذي تجسد من والدة الاله مريم هو ذاته كلمة الله الكائن قبل الدهور ، الكائن في السموات الذي يملأ الكل . وهذا لايخالف قول بولس الرسول : « يسوع المسيح هو هو امساً واليوم وإلى الابد » (عب ١٣ : ٨) .

ومع ذلك كان اليهود الذين يعلمون آراء كآراء الضلالة النسطوريه وهم خصوم عميان ، عندما كان الرب يسوع يصرخ : « انا هو الخبز الذي نزل من السماء » (يو٦ : ٤) كانوا يصرخون ضده مجدفين قائلين : « اليس هذا هو يسوع ابن يوسف الذي نحن عارفون بابيه وامه . فكيف يقول هذا إني نزلت من السماء » (يو ٦ : ٤٢) .

والمسيح الذي يعلم افضل من اليهود ومن النسطوريين انه واحد وهو ذاته لا ينقسم الى طبيعتين بعد الاتحاد ، والذي كان يرى ايضا ان بعض المتصلين به شكوا فيما قاله بشأن الخبز وترددوا كان يقول مهتما : « اهذا يعثركم . فان رأيتم ابن الانسان صاعداً إلى حيث كان أولا » (يو ٦ : ٦٢ - ٦٣)

فاذا كان يملأ الكل ، فكيف إذاً يقول : « صعد أيضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل » (اف ٤ : ١٠) ؟

انا نقول انه حينما تجسد ظهر للذين على الأرض . وذهب إلى الذين هم تحت الأرض حينما نزل الى الجحيم . فبقي ان

يذهب أيضا إلى الذين هم فى السماء ، بعد تجسده ، لكى يملأ الكل بالربح الذى يفيض من التجسد بخلاصة البشر من لعنة الخطية ورباطات الموت ، وباعلانه الآخرين باعماق حكمته .

ولقد عرفت القوات السمائية أيضا غنى الحكمة الالهية فى كامل وفرته ، ذلك الغنى المستتر بسبب التدبير الالهى ، مما كان يردده اولئك الذين جعلهم ميلاد عمانوئيل فى دهشة فظهروا مسبحين الله قائلين : « المجد لله فى الاعالى وعلى الارض السلام وبالناس المسرة » (لو ٢ : ١٤) . وكتب بولس الرسول إلى اهل أفسس مؤكداً ذلك بطريقة واضحة جداً فى هذه الآية : « لكى يعرف الآن عند الرؤساء والسلاطين فى السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة » (اف ٣ : ١٠) .

امام المتجسد تحنو كل ركبة . « لكى تحنو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الارض » (فى ٢ : ١٠) ويعترف الجميع بسلطانه : « ويعترف كل لسان ان يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب » (فى ٢ : ١١) .

ولا توجد امة أو لسان ، إلا واعترف بضرورة الايمان بالمسيح ، الذى به وفيه يعرفون الآب ، لان الذى رأى الابن رأى الآب (يو ١٤ : ٩) ، ومجد الابن هو مجد الآب .

وتدحض هذه الكلمات أيضاً حماقة اريوس وأمونيوس اللذين قالا بان ابن الله مخلوق وانه لا يساوى الآب . فانه فى الواقع ليس من العدل ان يعطى الاسم « الذى هو فوق كل اسم » لاحد المخلوقات أو لاحد الذين ليسوا مثل الله الآب بالجوهر ، لانه لو كان الابن مخلوقاً وكان واحداً من المخلوقات ومحسوباً منهم ، لما كان اسمه فوق كل اسم . وانه أعلى من كل خليقة وانه ليس بين الكائنات المخلوقات من يشبهه .

ولذلك فان الاولين والقدماء واكثر المسيحيين فهماً للالهيات ، الذين بهم اعلنت الاقوال الالهية والنبوات الخالية من الخطأ ، كانوا يدعونه أيضاً « الذى لا يمكن ان يسمى » أو « من يسمو ويسبق ويرتفع فوق كل اسم » . وبولس الرسول من ناحيته دعاه : « ذلك الذى هو فوق كل اسم »

ان عمانوئيل هو فوق كل خليقة ، إله بطبيعته . كان الثلاثة فتية يمجدون الرب وسط اللهب ووسط نار مخيفة للغاية . وكانوا يقبلون معهم الملائكة والسلاطين وكل الخليقة الروحانية الحساسة فى ذلك الخورس الروحانى ، لكنهم كانوا لا ينسبون المجد والرفعة فوق الكل الا لسيد الكون فقط .

من ذا الذى يستطيع ان ينطق بالمديح الذى يليق بكرم وعظمة محبة المسيح وتنازله الغير محدود ؟ ! !

قديماً كان موسى يصعد على جبل سينا ويظل اربعين يوماً لا يتناول فيها اى طعام ويصوم عن الخبز والماء ، لكى يرى فقط ظهور مجد الله ، وكان هذا المجد له تحت شكل نار مختلطة بالظلام والدخان .

لكن المسيح ، كلمة الله ، النور الحقيقى بدون اختلاط ، قد انطلق من العلا وتوغل فى عمق الأرض فى المناطق السفلى من الارض وأخرجنا من هنا واصعدنا نحن الذين كنا غارقين فى الخطية والموت .

بعد ان قام المسيح من الاموات ، عاش اربعين يوما مع التلاميذ وأكل وشرب عدة مرات مؤكداً بذلك هذا التدبير الالهى حسب الجسد الذى يفوق التصور . وهكذا صعد الى السماء وهو يحملنا جميعا فى ذاته ، لانه كان قد تجسد فى طبيعتنا .

لم تشك ايها الانسان ولا تؤمن بقيامة الأموات وبملكوت السموات ، بينما الذى يضمنها لك هو السيد المسيح الذى تجسد من جنسك وقام من الأموات وصعد إلى السموات ودخلها ؟

فى الواقع ، إن لم يكن قد تجسد بطبيعتنا ، حسب فرور افتيخوس ، لكان قد بطل رجاؤنا المستقبل ، ولكنا نتحمل نفس ما تحمله الذين يخدعهم المرابون ، أولئك الذين أخذوا عرضا عن الدنانير الحقيقية من الذهب والفضة ، ما يبدو كالذهب وهو من الداخل نحاس .

ولنسمع بولس الرسول يقول : فانه إذ الموت بانسان بانسان أيضاً قيامة الاموات . لانه كما فى آدم يموت الجميع هكذا فى المسيح سيحيا الجميع (١ كو ١٥ : ٢١ - ٢٢) .

وبينما كان السيد المسيح يصعد إلى السماء ، كان التلاميذ ينظرون اليه متعجبين . وكانوا متعلقين به بأرواحهم وهم يشخصون نحوه بأعينهم ويرفعون أبصارهم ، يسمعون ما يقول الرجلان اللذان وقفا بهم بلباس ابيض : « ايها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء . ان يسوع هذا الذى ارتفع عنكم إلى السماء سيأتى هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء » (اع ١ : ١١) . ولم يتوقف التلاميذ عن النظر اليه وهكذا كانوا يحيون وكانوا يستعدون للرؤيا المستقبلة .

وان تلك الكلمات لم تكن موجهة اليهم فقط ، بل إلى كل المؤمنين أيضاً عن طريقهم ، ونحن أيضاً ننظر اليه ونفكر فى الشرف الذى اولانا اياه بفضل الباكورة التى فوق كل رئاسة وكل سلطان .

ويقول القديس ساويرس منذراً بعض قومه فى ذلك الوقت : وانت لاتشعر بهذا الشرف وتجرى إلى مكان تدريب الحيوانات

المفترسة لترى اناساً من جنسك يصارعونها فتمزقهم أرباً بلا فائدة . أولئك الذين هم من نفس الطينة ولهم نفس الصورة العاقلة الالهية ولهم نفس التبنى ومن نفس الخليقة الثانيـــة ، الذين يشتركون فى الباكورة الوحيدة التى صعدت فوق السموات وتملكت على النفوس العلوية الروحانية غير المادية .

كيف اتكلم بدون دموع ؟ كيف ابين لك جسامة الخطيئة؟ بعد ان اتى بنا من لاشىء إلى الوجود ، وشرفنا بالسلطان على الوحوش والطيور والحيوانات وعلى كل الأرض حتى كانت الوحوش تخدمنا خاضعة لنا ، وكان الدب والذئب يكنان سلاماً نحو الانسان . فلتتقنعك الوحوش نفسها ، فقد كانت كسائر قطيع حيوانات المرعى تجتمع حول آدم ، حينما كان يعطيها اسماء بطريقة خاصة وكان يميز كل نوع باسمه ، ولكن الآن بعد ان انتزع عنا هذا السلطان بسبب الخطية ، لم نعد نحمل فى انفسنا السمة الطاهرة التى للصورة الالهية ، فاننا نخشى قساوة الوحوش الضارية . تتذكر سلطاننا القـــديم فتنكشف خطية جنسنا .

فلننظر إلى الانسان الجديد الذى اعادنا إلى ملكوت السموات بدلا من السلطان الذى كان لنا على الأرض والذى كنا فقدناه ، وجعلنا مخوفين ليس لدى الوحوش الضارية فحسب ، بل لدى الشياطين ، وأيضاً مكرمين عند الملائكة .

هذا ما يعلمه دانيال الذى أخزى أمامه الاسود ، عندما كان محبوساً فى الجب . وهذا أيضاً ما تؤكده القديسة تكلا التى جازت التجربة وكانت صابرة جداً فى البتولية وفى الإيمان، وكذلك الجمع الغير محصى من الشهداء الذين اوقفوا الغضب الرهيب لختام الوحوش الضارية ، مترسمين المسيح باكورة جنسنا ، وقد اقتبلوا القول الإلهى مثل بولس الرسول الذى يقول : «فأطلب اليكم ان تكونوا متمثلين بى كما انا بالمسيح» (١ كو ٤ : ١٦) .

ويختتم القديس ساويرس الخطاب فيقول : انه لا زال عندى أقوال كثيرة مؤثرة ، فانى انهى المقال احتراماً لهذا

العيد العظيم المحبوب ، متضرعاً إلى المسيح الذى رفع لأجلنا ، الذى صعد إلى السماء ، ان يرفع إلى السماء عقولنا المتجهة إلى أسفل ، بنعمته ومحبته ورحمته ، له يليق أيضاً المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين .